قضية الشكل بين الواقعية والقومية واللحظة السيكولوجية

بقلم زكريا الحجاوي

انسان واحد ، من بين الآلاف والملايين ، هو الذي جاء مختلفاً عن الناس ، وعن الكائنات ، وهذا الانسان الواحد ، هو الفنان .

الناس جميعاً ، ينشعبون الى فرق ، لكل فرقة حظيرة ، تعرف الطريق الى تعاليمها ، سواء أكانت الحظيرة للروح ، ام للمادة . والفنان وحده ، ينشعب من هذه الفرق كلها ، لا لأنه ملحد بما في الحظائر من افكار ، وانما ، لانه مؤمن بالفضيلة الانسانية الطبيعية ، في صمت ، وبالتأكيد .

الناس جميعاً ، يسلكون السبيل في الحياة ، وهم يبحثون عن اللذة ، وفي اعتقادهم يقين عميق بانها فرصة الوجود ، وهذا الانسان وحده ... الفنان ، يعمل جهده لاختراق سطح الحواس ، بحثاً عن مسرات أعمق ، يتلمسها بروحه ووجدانه ، بكل كيانه . انهم جميعاً يعيشون في خلايا الحياة اليومية ، وهو وحده يبحث عن حياة غير مقسمة بايام ، وبفصول ، وبومضات من اللذة ... عن حياة كلها ربيع مضيء ...

الناس جميعاً ، قد رفعوا الاعلام البيض ، فوق تلال العادات وقواعد السلوك ، وسهول النصيحة ، والفنان هو وحده الذي شنها حرباً دائمة على العادة ، وعلى قواعد السلوك ، وعلى النصيحة ، فاذا هم رأوا في سقطة المرأة عاراً لا يغسله إلا الدم ، رأى هو ان العار ليس الا في استسلام الناس الى عادة الثأر ، ورأى ان الشرف ليس في قتل الزانية ، وانما في قتل اسباب العفن الاجتماعي .

الناس جميعاً ، تضيء جوانحهم اذا اشرق القمر ، وتضوع مشاعرهم عطراً اذا هبت عليهم النسمات من منابت الورد والازاهير . ولكن هذا الانسان الواحد ، يلمح في صفات بعض الناس سماوات ارحب ، وفي فعالهم الجليلة اقماراً اجل واضوأ ، وفي مواقف التضحيات منهم ، فوحات مضمخة بعبق الجلال الانساني ...

الناس جميعاً ، يقولون ان الحياة فانية ، وكل شيء زائل ، وفي الخفاء ، يصنعون لمطامعهم المخالب والاظلاف ، كأنما هم يريدون امتلاك كل شيء لانهم لن يموتوا ، وهو وحده الذي يقول ، ان الحياة خالدة ، باقية ، لا تزول ، وفي الخفاء ، وفي العلن ، لا عمل له الا العطاء ، من ماله ، ومن نفسه ، ومن روحه ، كأنه ايقن في كل لحظة ، انه سيموت الآن ...

الناس جميعاً ، يستجيبون للعواطف والمشاعر ، وهو وحده الذي يبحث دائماً عن العلة .. وعن السبب ، ومن هنا راحوا جميعهم يتغنون : «ليس في الامكان ابدع مما كان» ، وراح هو وحده يصيح ، من خلال عمله الفني «: بل ان الامكان غير محدود .»

لم ذلك ..؟

الفنان ، باختصار يجيزه منطق الكلام ، انسان تجمعت بداخله ، وبخارجه ، ظروف ، دفعت به الى ان يصل الى النقطة الحرجة التي تتحول عندها الاشياء والكائنات من طبيعتها الاصلية ، الى طبيعة مغايرة ، النقطة الحرجة التي يتحول عندها الانسان بخصائصه الظاهرة ، الى انسان تغير تغيراً كيفياً تاماً .

ولو كانت اعضاء الانسان من عناصر كيمائية عارية ، او من عناصر نباتية ، او من عناصر معدنية ، لكنا رأيناه بالعين ، بعد وصوله الى النقطة الحرجة ، مثلما نرى هذه العناصر في حال تغيرها الكيفي ، ساعة ان نرى الكيمياء قد تبدلت من لون الى آخر ، ومن طبيعة متجمدة الى اخرى غازية ، او متفجرة ، وساعة ان نرى النبات وقد تحولت خضرته وتبدلت الى صفرة ، وساعة ان نرى المعدن وقد تحول من نوعه الى معدن آخر ، لو كانت اعضاء الانسان ، من بعض هذه العناصر ، لكان من السهل علينا ، ان نرى هذا الانسان ، كلما تفاعل به خاطر ، او حادث ، او فكرة . او رغبة ، وقد راح يتغير تغيراً كيفياً ، بحيث كان يمكن ان نرى عوامل هذا التغير ، من ذبول او ازدهار ، من انطفاء ولمعان ، من سكون وانفجار .

ان الذي جعلنا لا نبصر هذا الانسان في حال تغيره الكيفي ، كلما اصيب به ، ليس نوعاً من العمى يرين على افئدتنا ، وانما لاننا نراه ، ولا نسمع في داخله التدمير والتفجر ، ولا نشم رائحة التحول ، ولا نرى نفسه وقد تسرب الينا من ثناياها ابخرة وغازات .

ولكن ما سر قابلية هذا الانسان للتغير الكيفي ، دوناً عن الناس ، بحيث اصبح في خصيصة القابلية وكأنه – فيسيولوجياً – مخلوق من مادة كيمائية ، وكأن الظروف والاحداث والتجارب التي تعتوره ، خلقت هي الاخرى من الكيمياء ؟

لنعد الى مرحلة التكوين الاولى ، لنبصر إلى الناس وهم أطفال ، لنصاحبهم في تطورهم .. لنرصد العلل التي تبدأ في خلق الانفصال الحاسم في « نوعية » هذا الانسان .

اننا نرى اول ما نري ، ان سبباً ما ، يبدأ يربط هذا الطفل ، دوناً عن اترابه ، بالفن ، وقد يكون هذا السبب عضوياً ، بأن يكون طفلنا هذا هزيلاً غاية الهزال ، مما يتطلب طاقة غير عادية من حنان الأبوين ، وحنان الام على الاخص ، وعلى اليقين ، فيبدأ الحنان ، كعنصر زائد عن بقية العناصر التي تكون حياة الاطفال الآخرين ، يبدأ الحنان يظهر على هيئة ارتسامات عاطفية ، تظهر له في صوت امه ، وفي اشاراتها ، في عبستها وابتسامتها ، وينعكس هذا الحنان ، في حالاته المختلفة ، الى كل الكائنات ، فالطفل في ظنه ، ان كل شيء يحنو عليه .

وقد يكون طفلنا هذا ، ذا هيئة ملفتة ، تركز حوله الانظار اكثر من غيره ، كأن يكون وسيماً غاية الوسامة ، او ان يكون دميماً ، ينفر الابصار ويشرد الذهن ، او كأن يكون ذا انفاشه بالاحتجاج في عريضة الوجه ، او كأن يكون جاحظ العينين . او قصيراً في بخل

تكويني ، او طويلاً في سخاء ، او بديناً ، او ذا شعر يذكر بالغابات والحيوانات المفترسة .

وكما تركز حول طفلنا الانظار يبدأ هو بدوره ، وباللاشعور، يرقب هذه الانظار التي تحدق فيه ، ويتكون في لاشعوره الراقب الراصد ، على الرغم منه ، مكروب الفكر ، والتأمل ، والجدل ، والتسبب ، والتعليل ، والمحايثة .

وطفل هذا شأنه ، زيادة او نقصاً ، تنعكس النظرات عليه ، كريمة، او غير كريمة ، وهو يراها كلمات ... كلمات غير ملفوظة ، وهو يراها ارتسامات معبرة ناطقة ، ويبدأ طفلنا هذا ، يحمل في واعيته ، صوراً ، ومرئيات ، وملاحظات ، وكلمات ، لا وجود لها بواعية الاطفال الآخرين .

وقد يكون السبب غير عضوي من هذه الاسباب التي تكون في الطفل نقصاً او زيادة نفسية ، وانما قد يكون سبباً نفسياً خالصاً ، منشأه ظرف اجتماعي: كأن يكون رث الهيئة ، وحوله اطفال ليس بهم رثاثة ، او هو في حلبة التوثب الطفولي ، متخلف حسير ، في مظهره .. او في كينونة اسرته ، او في خلق بعض ذويه ، او مشقق النفس نتيجة للتصدعات بين ابويه ، او غائم الشعور ، ساخناً ، للتسربات التي تدخل الى قلبه حول صناعة ابيه الوضيعة ، او خلق امه المطلقة ... او هو محروم منبوذ من الدنيا ، لانه يتيم ، رغم وجود ابويه على قيد الحياة ، الحياة المحرومة المنبوذة ... ومن شأن هذه الصدوع والانشقاقات والحسرات ، ان تدخل الى نفس طفلنا هذا ، لا مجرد شعور ، وانما شعوراً مرسوماً ملوناً ، صور ، ومرئيات وملاحظات وانطباعات ، وهنا ينشأ في وجدان طفلنا الخفق .. والشوق .. والتعليل .. والتسبيب .. والفكر .

يصدر في مطلع سنة ١٩٥٦

الروم

في سياستهم ، وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب

للدكتور أسد رستم

منشورات دار المكشوف

بيروت — ص.ب ٥٨١

وثمة يقوم سؤال : هل كل الاطفال الذين تفاعلت فيهم دوافع هذه الاحساسات ، سينتهي بهم الامر ، جميعهم ، الى ان يكونوا أطفالا غير عاديين .. فنانين ؟

لنصاحب طفلين من هذا النوع ، ممن يشعرون بنقص او بزيادة ، عضوية او نفسية ، او يعيشون في حياة شاحبة للتصدع النفسي الاجتماعي الحادث لكليهما ...

كان كل منهما يعيش بعد ان ولد به مكروب الفكر ، وامتلأت واعيته بالصور والملاحظات والمرئيات ، وهو يحس وكأنه علامة حمراء في لوحة الطفولة ، وانتهت المرحلة الاولى بكل منهما ، وهو يشعر بأن به شيئاً غير مألوف : ما هو هذا الشيء المجهول ؟ انه لا يعرف ! وتنتهي مرحلة اخرى ويكون كل من الطفلين قد تحسس الشيء غير المألوف، وبدأ يشعر بالنقيصة ، ويسلك حياته خائفاً متباعداً ، كأنه بلورة استعصت على الذوبان في سائل الجماعية الطفلة،وتنتهي مرحلة ثالثة وقداصبح كل منهما على صلة بالاحساس المروع الذي يتلقاه من عيون الناس ،فاذا ما كان موضع سخريتهم، فالحياة كلها سخرية منه ، لا الأطفال وحدهم، وانما الكبار ايضاً يسخرون منه ، واذا ما كان موضع اشفاقهم،تحولت الحياة كلها الى شفقة. ان اللفظ العيني او اللساني الذي كان يراه او يسمعه من اترابه ولداته،اصبح وهو يحس به في اعماقه حتى وهو منفرد .. بعيداً عن العيون .

وفي المرحلة التي سار فيها كل من الطفلين ،وهو منطو مأخوذ بنقيصته، يشعر كل منهما بانه انقص من الجماعة . يصطدم احدهما بلحظة حاسمة ، بحادث مروع ، يتحول فيه اللفظ الموحي له بنقيصته ، الى كلام منطوق صريح ، قاس ، يجعله يحس ساعتئذ وكأن الدنيا تضحك سخرية به ، وتشارك صاحب هذا الكلام في اشعاره بذل النقيصة .. وقد يكون هذا الكلام اغضاء فتاة الاحلام في جفول عنيد ؛ وقد يكون مساجلة بينه وبين رفاقه .. وقد يكون ارتسامة نافرة هائلة من هؤلاء الذين تجسدت فيهم المثل العليا ، الأب ، او الام ، او المدرس .. او الصديق الحميم . هنا ، ومن هذه اللحظة الحاسمة ، يبدأ طفلنا هذا ، يبحث عن الصداقة ، وعن المثل الاعلى ، وعن الرفقة والالفة ، في دائرة اوسع من دائرة جماعته ، في الخيال ...

يبدأ طفلنا هذا ، وقد اختلف عن جميع رفاقه ولداته ، فهم يرون الظل ظلاً ، ولكنه يراه ظلا ، وحناناً ، وصداقة ، ورحمة ، وهم يرون القمر قمراً ، ولكنه يراه ، قمراً ، وحناناً ، وصداقة ، ورحمة ، وشعراً فضياً شائعاً . وهم يرون البحر بحراً ، وهو يراه ، بحراً ، وغناء ملاحين ، واشواق المسافرين ، وفرحة العائدين المغتربين ، انه يرى كل شيء مضافاً اليه اشياء صنعها الخيال ، او في عبارة ، انه يرى جوهر الاشياء .

الكلام عند الناس جميعاً وسيلة تخاطب ، ولكن الكلام وحده ، عنده ، ليس كل الوسيلة ، وانما هو يأخذ القضية من كلام محدثه ، ومن ارتسامات وجهه ، ومن لون صوته ، ومن اشارات يديه ، ومن الومض السريع المتلاحق في عينيه . ومكروب الفكر الذي ولد فيه قديماً ، هو وحده الذي يعرف من هذه السبيكة ، هل هو صادق هذا المتحدث ام كاذب ، وهل هو يريد ظاهر الكلام ، ام انه يبطن رغبة خفية ..

وتتسرب الاصوات ، والصور ، والانطباعات ، الى مخيلة طفلنا والى واعيته ، ومشاعره ، فتملأها بعضها بالتعاسة ، وتملأها بعضها بالرضا ، ولا شيء يبعد عنه شعوره بالاغتراب النفسي ، ووحدته ، ويحول وحشته الى مباهج ، الا لحظة سيكولوجية تذكره بمثيلة لها في ارتسامات الحنان ، او في ارتسامات الظل، الظل، او ارتسامات القمر .. مثل اغنية

٧٤

يسمعها ، او عبارة يقرأها ، او صورة يراها ، او تمثال يشاهده ...

ان اعمال الفن ، يتركز فيها ، وهو في محرابها ، اللحظة السيكولوجية الخالدة ، تلك التي لم يكن يحس فيها بأنه غير مألوف ، او شاذ ، او صاحب نقيصة ، اللحظة السيكولوجية التي كان يحيا فيها ، هي نفسها التي اعادت اليه الحياة وهو واقف امام العمل الفني ...

والعمل الفني الذي يراه طفلنا ليس مجرد اغنية ، وانما هو اغنية ، وظل ، وحنان ، وامومة ، واصدقاء ورفقة في الشارع ، وقلة رطبة ، وباعة طيبون ينادون على بضائعهم ، عند رأس الحارة ، في شوق .

وهو يفتن بهذه الصورة دون غيرها ، لا لانها مجرد صورة للحقل في يوم الحصاد ، وانما لان شعوره العميق ، يعرف ، ان هذا اللون الاصفر ، هو لون الحصير الذي كان يقتعده في البيت ، وهو يصغي الى حنان امه وارتسامات عاطفتها الزاهية . وهذا اللون الازرق في الصورة يؤكد له شعوره العميق ، بأنه مأخوذ من لون جلباب امه او ابيه ، وان هذا اللون الاخضر في الصورة ، يذكره بشيء جميل عذب ، لا يذكره ، هل هو ابتسامة امه ، ام هو لون منديل رأسها ..

وهذا التمثال الذي يستبد باعجابه .. ما سر افتتانه به ؟ هل لان لونه الابيض الناصع ، يذكره بلون شارعهم الشاهق ؟ وهذه الثنيات والتجاعيد في ملابس الرجل الخالد في تمثاله ، هل تذكره بتجاعيد وجوه الرجال الطيبين الذين كان يتلمس منهم الرحمة والشفقة دونا عن الساخرين والهازئين به ؟..

لقد تغير كل شيء في الطفل تغيراً كيفياً ، فالنغمة قد يراها صورة ، والصورة قد يراها كلاماً ، والتمثال قد يراه شارعاً بحاله قد عج بالرجال والنساء والباعة ...

ان كل شيء في الحياة ، له اشباه في الاعمال الفنية ، وكل شيء في الفن ، له اشباه في الحياة .

ان العواطف يحسها دائماً وقد صاحبها الوان ، ودبيب موسيقى ، وترانيم ، وتماثيل ، وصور رائعات .

ويسير الطفل بعد ذلك الى الحداثة فالشباب والنماء ، وتتم فيه الاكتمالات الغريزية والعقلية ، وتبدأ لهفاته نحو بحثه عن المثل الاعلى ، وعن الصداقة ، وعن الوطن النفسي ، لكيلا يتذكر اسباب نقيصته . تبدأ لهفاته هذه ، تقوده باللاشعور ، الى محراب الطبيعة الثانية الجليلة ، ليعيش فيها ، هذه الطبيعة الثانية التي خلت من الساخرين والمحدقين بابصارهم ، والتي تفوق الطبيعة الجافة التي يحيا فيها الناس ، بألوانها ، وترانيمها ، وصورها ، وتماثيلها ، وعباراتها الشاعرة ، تلك الطبيعة الثانية التي نسميها الفن .

ترى ، اي فن ينتجه فناننا ذلك ..؟

لا يحدد اتجاه الفنان بعد دور التكوين ، الا الدور الذي تلعبه احتياجاته الغريزية ، والاجتماعية ، والعاطفية . فانه سيصطدم ، في الغالب ، وهو يبحث عن تحقيق نفسه غريزياً وعاطفياً واجتماعياً ، سيصطدم بالتناقض الهائل بين الطبيعة الفنائية الملونة التي يراها ببصيرته ووجدانه وخياله ، وبين الواقع المباشر في المجتمع ...

وعند حائط التناقض يبكي كثيرون من الفنانين ، فيضيفون الى كتيبة الرومانسية جندياً ، وعنده يقف غير قليل من الفنانين ، وهم يبحثون في علة وجود هذا الحائط ، ثم يمتشقون اداة التعبير ، ويضيفون الى كتيبة الواقعية جنوداً للمعركة .

فاذا ما انحاز فنان في زماننا الى الواقعية ، فانما هو ينحاز الى تخليص مجتمعه من اسباب النقيصة ، والى هدم حائط التناقض ..

ولكن ..؟

هل كل فنان انخرط في كتيبة الواقعية ، فنان واقعي ..؟

ومقالنا هذا ، هو الجواب ، او بعض الجواب ، على السؤال . فما لم ينبع المضمون من اللحظة السيكولوجية التي نحياها ، وما لم يتشابه الشكل واللحظة السيكولوجية ايضاً ، فانه يكون فنانا واقعياً بالتطوع ، لا بضرورة المولد وحتمية الوجود ...

وقضية الشكل ، في الواقعية ، اخطر من قضية المضمون ، ذلك لان كثيرين يكتبون بالعربية الفصحى ، وكثيرون يكتبون بالعامية ، ولحظاتنا السيكولوجية التي نحياها غير متحفظة بالفصحى و بالعامية معاً ؛ وانما هي متحفظة باللغة التي يتكلم بها الناس ، هذه الفصحى التي تطورت صاعدة الى اللغة القومية ، اي العربية المصبوبة في منطوقات عامية ...

فالذي يكتب ، الحوار ، بالفصحى ليس واقعياً ، والذي يكتب الحوار ، بالعامية ، ليس واقعياً ، والواقعي هو الذي يدرك ببصيرته ما هي العبارة التي تمليها اللحظة السيكولوجية في زمن القصة ...

والذي يعطينا مضمونه من خلال شكل تجريدي لا يجعلنا نعرف من اي بلد هم ابطال قصته ، وليس من اي بلد جغرافياً ، وانما من اي بلد من حيث المادة ، والطبع ، والاصطلاح العاطفي السائد ، والافكار السابحة في وجدان الامة ، اي من اي بلد من حيث اللحظة السيكولوجية .. ان الذي يعطينا مضمونه على نحو غير هذا النحو .. ليس اديباً واقعياً ، وليس اديباً قومياً .

القاهرة — زكريا الحجاوي

كيف أكتب

خير سلسلة يضعها المدرس بين ايدي طلبته ليساعدهم على تكوين ملكة التعبير الشفهي والكتابي ، وييسّر مشاق « الانشاء » ويعلمهم الكتابة الصحيحة من اسهل الطرق . وفيه من النصوص والتمارين والموضوعات الطريفة والقصص المختارة ما يجعله مساعداً لكتاب القراءة في مدارس البلدان العربية جميعاً .

صدرت في اربعة اجزاء انيقة الطبع ، مصورة بالالوان في اواخرها مسرحيات اخلاقية للتمثيل على مسرح المدرسة .

اطلبها من دار العلم للملايين – بيروت